بلاغة التركيب في سورة الكافرين

الدكتور مشهور أحمد اسبيتان – كلية فلسطين التقنية – رام الله – فلسطين

الملخص :

يهدف هذا البحث " بلاغة التركيب في سورة الكافرين " إلى دراسة وبيان بلاغة التركيب في الأساليب التي اشتملت عليها سورة الكافرين ، وتحليلها نحويا وبلاغيا ، فسورة الكافرين لها فضائل ذكرتها الأحاديث النبوية ، وتزخر أيضا بالأساليب واللمسات البيانية التي تظهر علاقة النحو بالبلاغة . فالتركيب أهم مظهر لغوي لإدراك طبيعة النظام النحوي في التواصل اللساني والإنساني للناطقين بالعربية .

وسار هذا البحث وفق المنهج الوصفي في دراسة التراكيب التي اشتملت عليها السورة وبيان البلاغة التي فيها وأثرها في المعنى .

وبني هذا البحث من تمهيد تناول فضائل سورة الكافرين ، وتعريف التركيب ، ومبحث واحد تناول التراكيب في السورة وهي : الخطاب ، والنداء ، و النفي ، والتكرار ، والتقديم والتأخير .

وانتهى البحث إلى مجموعة من النتائج كان أهمها :

ـــ لسورة الكافرين فضائل كثيرة ، منها أنها تعدل ربع القرآن ، وهي براءة من الشرك .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـــ تنوعت التراكيب في السورة ، وأفادت السياق قوة وإظهارا للمعنى ، وخرجت إلى معان متعددة .

المقدمة :

الحمد لله الذي بسط الأرض ورفع السماء ، وله الجلال والكبرياء ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء ، وعلى آله الشرفاء .

إن الاعتقاد العميق بالعلاقة الراسخة بين اللغة العربية والقرآن الكريم يمهد السبيل للولوج في دراسة بعض مستويات اللغة التي في القرآن الذي سيظل مصدر كل نور ، يمد كل من تتلمذ له بجديد ، فمهما كتب الكاتبون وأبدعوا فسيبقى الذي فاتهم من القرآن أكثر من الذي أخذوه .

والبلاغة فن من فنون العربية التي لا يستغني عنها أديب أو ناقد . فالأديب يعرف بها سبل القول وطرائق التعبير ، والناقد يميز بها رائع الكلام من رديئه .

والمتأمل في جهود بلاغيينا القدامى يجد أنهم وقفوا عند حدود الكلمة والجملة والصورة الجزئية ، و لم يتعدوها إلى العناية ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة ؛ مما يوجب على دراساتنا البلاغية المعاصرة الاهتمام الكبير بالإفادة من البحوث الأسلوبية الحديثة باعتبارها اتجاها رئيسا من اتجاهات النقد الأدبي الحديث،مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ومقوماتها البيانية .

ومن هنا آثرت دراسة هذا الموضوع " بلاغة التراكيب في سورة الكافرين " من أجل دراسة بلاغة التركيب في الأساليب التي اشتملت عليها هذه السورة ، وتحليلها نحويا وبلاغيا فسورة " الكافرون " لها فضائل ذكرتها الأحاديث النبوية ، وتزخر أيضا بالأساليب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واللمسات البيانية التي تظهر علاقة النحو بالبلاغة . فالتركيب أهم مظهر لغوي لإدراك طبيعة النظام النحوي في التواصل اللساني والإنساني للناطقين بالعربية .

وسيقوم هذا البحث على المنهج الوصفي في دراسة التراكيب التي اشتملت عليها السورة ، ثم بيان أثر هذه التراكيب في بلاغة السياق والمعنى .

وبني هذا البحث من تمهيد اشتمل على فضائل سورة الكافرين ، وتعريف التركيب ، ومبحث واحد تناول التراكيب في سورة الكافرين وهي : الخطاب ، والنداء ، والنفي ، والتكرار ، والتقديم ، والتأخير . **التمهيد** :

فضائل سورة الكافرين :

قال رسول الله ـ عليه السلام ـ : " قل يا أيها الكافرون " تعدل ربع القرآن (1) وقال رجل للنبي ـ عليه السلام ـ : أوصني قال : " اقرأ عند منامك " قل يا أيها الكافرون " فإنها براءة من الشرك " . (2)

وقال ابن عباس : ليس في القرآن أشد غيظا لإبليس منها ؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك . وقال الأصمعي : كان يقال لـ " قل يا أيها الكافرون " و " قل هو الله أحد " المقشقشتان ؛ أي أنهما تبرئان من النفاق . (3)

ووجه كون هذه السورة تعدل ربع القرآن : أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي ، وكل واحد منها ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب ، وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام ، وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى ، وهي من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب ، فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . (4)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وثبت في صحيح مسلم أن الرسول ــ عليه السلام ــ قرأ بهذه السورة وبـــ" قل هو الله أحد " في ركعتي الطواف ، وقرأ بها في ركعتي الفجر ، وقرأ بهما في الركعتين قبـــل الفجـــر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة أو بضع عشر مرة (5)

وهذه السورة سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمـــل لله ــ تعـــالى ــ وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر ، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان ، وفيهـــا تصريح باستقلال عبادة الله وحده عن عبادة الكفار، وسميت (الكافرون) لأن الله ــ تعالى ــ أمر نبيه أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام ، وتسمى أيضا ســـورة المنابذة ، وسورة الإخلاص وسورة العبادة (6)

---

(1) الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق صدقي محمد جميل العطار ،دار الفكر بيروت ،1414 ــ 1999 باب ما جاء في سورة الزلزلة، ج4 ص 409 .

(2) أبو داود ،سليمان بن الأشعث ،سنن أبي داود، ط1 ،دار ابن حزم ،بيروت ،1418 ــ 1997 ،باب ما يقول عند النوم ،ج5 ،ص191

(3) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقيـــة ، القـــاهرة ، جـــ20 ، ص177

(4) الدرة ، محمد علي طه ، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه ، ط1 ، دار ابن كـــثير ، دمشـــق ــ بـــيروت ، 1430ــ 2009 ، المجلد العاشر ، ص 748 .

(5) مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، ط1 ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2010 ، باب ، استحباب ركعتي سنة الفجر ، ص 164

(6) الزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ط 2 ، دار الفكر ، دمشق ، 1424ـــ 2003 ، جـــ 15 ، ص 837 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التركيب :

لغة: ركَّب الفصَّ في الخاتم والسنان في القناة فتركّبَ فيه . ومن المجاز: ركِبَ الشحمُ بعضه بعضا وتراكب . وركبه الدَّيْن . ورَكِبَ ذنبا وارتكبه . (1)

وتراكَبَ السحابُ وتراكم : صار بعضه فوق بعض. وركبَّ الشيء : وضع بعضه على بعض والمرَكّب : الأصل والمنبت ، تقول : فلان كريم والمُركّب أي كريم أصل منصبه في قومه . ورواكب الشحم : طرائق بعضها فوق بعض في مقدم السنام . (2)

والتركيب : جمع الحروف البسيطة ونظمها لتكوّن كلمة . (3)

قال تعالى : " في أي صورةٍ ما شاءَ ركَّبَكَ " [الانفطار8] أي شكلك وجمعك : فالتركيب بمعنى الجمع والتشكيل . وقال ابن سيده : " ركبَّ الشيء : وضع بعضه على بعض ، وقد تركبَّ وتراكب " .(4)

اصطلاحا: أوضح ابن جني أن الجملة هي النموذج التركيبي للكلام : فالكلام في تأليفه وتركيبه يبنى على عناصر التركيب التي يشترط فيها أن تكون تامة ومفيدة ، و " هذه صورة الجمل " . (5)

وذكر السكاكي أن الغرض الأصلي من وضع الكلام هو التركيب ؛ لأن الكلم يمتنع وضعه إلا لفائدة ، والأصل في التركيب هو نوع الخبر لكثرته . (6)

وقسم ابن يعيش التركيب إلى ضربين : تركيب إفراد وتركيب إسناد ، فتركيب الإفراد أن تأتي بكلمتين فتركبهما ، وتجعلهما كلمة واحدة بإزاء حقيقة واحدة بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين ، وهو من قبيل النقل ، ويكون في الأعلام نحو : معدي كرب وحضرموت ... ولا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تفيد هذه الكلم بعد التركيب حتى يخبر عنها بكلمة أخرى ... وتركيب الإسناد أن تركب كلمة مع كلمة تنسب إحداهما إلى الأخرى . (7)

ووقف المحدثون عند المركب وأنواعه وتعريفه ، فقال الغلاييني : " المركب قول مؤلف من كلمتين أو أكثر لفائدة ، سواء كانت الفائدة تامة مثل : " النجاة في الصـــدق " أو ناقصـــة مثل: إنك إن تتقن عملك".(8)

---

(1) الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، 1409ـــ 1989 ، ص 510 .

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، ط 3 ، دار إحياء التراث ، بيروت ، 1419 ـــ 1999 ، مادة ركب .

(3) أبو الحسن علي بن محمد الحسيني الجرجاني ، الحنفي ، التعريفات ، ط1 ، دار الكتـــب العلميـــة ، بـــيروت ، 1421ـــ 2000 ، ص 60 .

(4) ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق ، محمد علي النجار ، ط1 ، مطبعة الحلبي ، مصر ، 1973 ، جـــ7 ،ص14ـــ15

(5) ابن جني ، الخصائص ، تحقيق عبد الحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين ، جـــ 1 ، ص 43 .

(6) السكاكي ، مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت ، ص 67 .

(7) ابن يعيش ، شرح المفصل ، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، المجلد الأول ، ص 44 .

(8) الغلاييني ، مصطفى ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية ، صيد ـــــ بيروت ، 1423ـــــ 2003 ، جـــ1 ، ص13 .

الخطـــاب :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا شك أن الخطاب القرآني خطاب رباني صادر من الله خالق كل شيء ؛ لذا تتره عن أن يشبه أي خطاب بشري شعرا أو نثرا ، فكان معجزا لا يجاريه أرباب البيان من فحول الشعراء والخطباء العرب . والخطاب القرآني في محوريْه ، العقلي والنفسي يجعل النفس البشرية تستجيب له وتقبل بقوة حجته العقلية ووضوحها وقدرتها على الإقناع . (1)

وقد تضمن الخطاب القرآني أمورا كثيرة تخص حياة الناس وعلاقتهم برب العالمين ، وأهم هذه الأمور توحيد الله وعبادته وحده ، وترك عبادة الأصنام ، واعتمد في ذلك صيغا كثيرة ، كان منها صيغة فعل الأمر . (2) ولو تأملنا في قوله تعالى : " قل يا أيها الكافرون " [الكافرون1] نجد هذه السورة افتتحت بالخطاب الرباني المعتمد على فعل الأمر " قل " . وفائدة كلمة " قل " : أن سيدنا محمد ــ عليه السلام ــ كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور ، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن ، فلما كان الخطاب هنا غليظا أراد الله ــ تعالى ــ رفع الحرج عنه ، وبيان أنه مأمور بهذا الكلام ، لا أنه ذكره من عند نفسه . (3)

وهذا الخطاب له علاقة بتسمية السورة بـ " الكافرون " لأن الله تعالى أمر نبيه محمداً ــ عليه السلام ــ أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان . (4)

والخطاب للكافرين في السورة يتضمن أعنف مواجهة للمساومين على الباطل ، المداهنين للحق ، الذين يفاوضون للخلط بين الحق والباطل ، بغية إقامة مصالحة توفيقية بين متناقضات لا يمكن اجتماعها ؛ لأن أمر التكليف قائم على الخطاب بقوله : " قل " يترتب عليه إعلام الكافرين بأن ما هم عليه باطل حتما ، وأن المبادئ الحق في الحياة لا تقبل التصنيف ، ولا المساومة عليها ، ولا المصالحة فيها . (5)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(1) الخالدي ، كريم حسين ناصح ، الخطاب النفسي في القرآن الكريم ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1428 ــ 2007 ، ص 15 ــ 17 .

(2) المرجع السابق ، ص 101 .

(3) الزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، جـ 15 ، ص 842 .

(4) المرجع السابق ، جـ 15 ، ص 837 .

(5) الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ، معارج التفكر ودقائق التدبر ، ط 1 ، دار القلم ، دمشق ، 1420 ـــ 2000، جـ1 ، ص710ــ711 .

النـــــداء :

النداء أصل التواصل اللغوي بين المتكلم والسامع ، فالجملة الندائية تضفي على التركيب شحنة هامة فَتُوَجَه إلى السامع والمتكلم . وهي جملة نحوية قائمة على بنية سطحية إنشائية ، وبنية مضمرة خبرية . (1)

ومن معنى كلمة النداء يتبين أنه صيغة لغوية فيها توجيه الدعوة إلى المخاطب وتنبيهه للإصغاء وسماع ما يريده المتكلم . (2)

وإذا أردنا تحديد طبيعة النداء وجب أن ننظر إليه من جهة بنيته اللغوية ؛ لأنه تركيب ثنائي ، يتألف من جملة النداء ومن جملة جواب النداء أو مضمونه . وهو بذلك يشبه تركيب القسم الذي يتكون من جملة القسم وجوابه . واقتضاء النداء للجواب اقتضاء معنوي فحسب ؛ فنداء المخاطب هو تنبيه له أو حث على شيء معين سيلقي عليه من خلال الكلام . (3)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأسلوب النداء أو جملة النداء تبنى على شيئين : أداة النداء ، ومنادى ، ومن اتحادهما ينشأ مركب لفظي . وحروف النداء خمسة : يا و أيا وهيا والهمزة وأي . و " يـــا " أم البـــاب واختصت بأن نودي بها القريب والبعيد ، واستعملت في الاستغاثة دون غيرها (4)

وورد النداء في هذه السورة في آية واحدة هي " قل يا أيها الكـــافرون " [الكـــافرون1] وتظهر بلاغة تركيب النداء في هذه الآية فيما يلي :

1ـــ سبب النزول : ذكر ابن اسحاق عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، وأبو جهل ، لقوا رسول الله ـــ عليه السلام ـــ فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت خيرا مما بأيدينا ، كنا قد شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك ، كنت قد شاركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فـــأنزل الله تعالى " قل يا أيها الكافرون " فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه . (5)

وكان النبي ـــ عليه السلام ـــ يأتيهم في ناديهم ويقول لهم : " يـــا أيهـــا الكـــافرون " [الكافرون1] مع ما في هذا الوصف من الإرذال بهم ، وهو يعلم أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر ، ويدخلوا في جملة أهله لأنه محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم . (1).

---

(1) شابسوغ ، حفيظة أرسلان ، الجملة الخبرية والجملة الطلبية ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، إربـــد ، 1425 ـــ 2004 ، ص 248 .

(2) حسن ، عباس ، النحو الوافي ، ط5 ، دار المعارف ، القاهرة ، جـــ 4 ، ص 1 .

(3) قباوة ، فخر الدين ، إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ط3 ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1401ـــ 1981 ، ص 103 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(4) الحريري ،أبو محمد القاسم بن علي ، شرح ملحة الإعراب ، تحقيق د. فائز فارس ، ط1 ، دار الأمل ، إربـــد ، 1412ــ 1991 ، ص 153 .

(5) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ 220 ، ص 177 .

2ــ النداء بـــ " يا أيها " وذلك للمبالغة في طلب إقبالهم لئلا يفوتهم شيء مما يلقي إليهم (2) لأن (ها) الداخلة على (أي) تفيد التنبيه ، وهي تدخل على " أي" كتابةً ، ولكنها تـــدخل في الأصل على نعت أي وهو " الكافرون " وهي واجبة للتنبيه على أنه المقصـــود بالنداء (3)

3ــ النداء بـــ " الكافرون " دون الذين كفروا . للدلالة على أن مَن كان الكفر وصفا ثابتا له لازما لا يفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريء من الله . فالمعنى : كما أن الكفر لازم لا يفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريئا من الله . فالمعنى كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتةً أبداً (4) ثم إن الكفر كان دينهم القديم و لم يتجدد لهم ، أو للمسارعة إلى ذكر ما يقال لهم لشدة الاعتنـــاء به ، وبهم دون المشركين مع أنهم عبدة أصنام ، والأكثر التعبير عنهم بذلك ؛ لأن ما ذكـــر أنكى لهم فيكون أبلغ في قطع رجائهم الفارغ . وقيل : هذا للإشارة على أن الكفر كله ملة واحدة . (5) وفي هذا النداء إعلام من الله إلى رسوله وسائر المؤمنين أن ينـــادوا المكـــذبين الجاحدين بوصفهم المشتق من الكفر ، فيواجهوهم بالنداء التالي :" يا أيها الكـــافرون " (6) وهو يتضمن معنى الإهانة ؛ لذلك لم يقع إلا في هذا الموضوع في القرآن (7)

وقد اعتمد النداء في الآية على صيغة اسم الفاعل " الكافرون " واسم الفاعل يـــدل علـــى ثبوت الوصف في الزمن الماضي ودوامه ، بخلاف صيغة الفعل الماضي " كفروا " لأن الفعـــل الماضي يدل على وقوع الفعل في الزمن الماضي لا على ثبوته ودوامه . (8)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأل التعريف في " الكافرون " للجنس ، ولكنها ترجع إلى معنى المجهول ؛ لأنها خطاب لمن سبق في علم الله أنه سيموت على كفره ، فكان المراد بهذا العموم (الجنس) خصوص ، وهم الأشخاص الذين ورد ذكرهم في سبب النزول ؛ لأن من الكفار من أسلم وعبد الله عند نزول هذه الآية . (9)

---

(1) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422ـــ2001 ، جـ 8 ، ص 522 .

(2) الألوسي ، روح المعاني ، دار الفكر ، بيروت ، 1414ـــ 1994 ، جـ 29 ، ص 450 .

(3) ابن هشام ، مغني اللبيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ـــــ بيروت ، 1424ـــ 2003 ، جـ2 ، ص 402 .

(4) ابن قيم الجوزية ، بدائع القوائد ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط1 ، دار البيان ، دمشق ، 1415 ـــ 1994 ، جـ 1 ، ص 153.

(5) الألوسي ، روح المعاني ، جـ 2 ، ص 450 ـــ 451 .

(6) الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ، معاني التفكر ودقائق التدبر ، جـ1 ، ص 706 .

(7) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424ـــ 2002 ، جـ 2 ، ص 65 .

(8) السامرائي ، فاضل ، معاني الأبنية في العربية ، ط2 ، دار عمار ، عمان ، 1428 ـــ 2007 ، ص 44 .

(9) الشوكاني ، فتح القدير ، المكتبة العصرية ، صيدا ـــ بيروت ، 1423 ـــ 2003 ، جـ 5 ، ص 646 .

النـــــفي :

الخبر بالنفي والإثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه . فإذا قلت : (ما هـــو إلا مصيب ، أو ما هو إلا مخطئ) قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته . (1)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينصرف نفي الجملة إلى المعنى الدلالي في التركيب ، فالذي ينتفي ليس الإسناد ، وإنما العلاقة المعنوية الطبيعية التي تربط بين المسند والمسند إليه ، أما النفي فإنه ينصرف إلى المعنى الدلالي فقط .

ومن المحدثين من عرّف النفي فقال : " النفي أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول ، وهو أسلوب نقض وإنكار ، يستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب " . (2)

والمتأمل في النفي في هذه السورة يجده في الآيات الآتية : " لا أعبدُ ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد " ففي هذه السورة :

1ــ اشتمال على النفي المحض ، وهو خاصة هذه السورة ، فإنها سورة براءة من الشرك ، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقا للبراءة المطلوبة ، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا فقوله : " لا أعبد ما تعبدون " براءة محضة و " لا أنتم عابدون ما أعبد " إثبات أن له معبودا يعبده ، وأنتم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفي والإثبات . (3)

2ــ أتى بأداة النفي (لا) دون (لن) . لأن النفي بـ (لا) أبلغ منه بـ (لن) ، وأن (لا) أدل على دوام النفي وطوله من (لن) . فتأمل حرف (لا) تجد بعد اللام ألفا يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس ، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها . وقال السهيلي : إن العرب تنفي بلن ما كان ممكنا عند المخاطب مظنونا أنه سيكون ، وهذا يبين وجه اختصاصها في القرآن بالمواضع التي وقعت فيها دون (لا) . (4)

3ــ جاء على (ما) دون (من) حينما نفى عبادتهم " ولا أنتم عابدون ما أعبد " والأصل أن يقول من أعبد . لأن المراد الصفة ، كأنه قال لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق . وقيل : إن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ما " مصدرية أي لا أعبد عبادتكم ، ولا تعبدون عبادتي . (5) لأنه عندما قال : " لا أعبد ما تعبدون " فأطلق (ما) على الأصنام

---

(1) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، شرحه د. ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ـــ بيروت ، 1424ـ 2003 ، ص331 .

(2) المخزومي ، مهدي ، في النحو العربي نقد وتوجيه ، ط 1 ، المكتبة العصرية ، صيدا ـــ بيروت ، 1974 ، ص 246 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، جـ 1 ، ص 152 .

(4) المرجع السابق ، جـ 1 ، ص 106 + 152 .

(5) الزمخشري ، الكشاف ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415ـ 1995 ، جـ 4 ، ص 804 .

قابل الكلام بـ (ما) في قوله (ما أعبد) وإن كان يراد بها الله تعالى ، والأصل من أعبد فحمل الأول على الثاني ليتقابل الكلام ؛ لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ مع الانفراد.(1) ولعل اعتماد المقابلة كان أنجح في أداء دورها المنوط بها في تحسين المعنى . (2)

4ـ النفي باسم الفاعل . لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل " ولا أنتم عابدون " وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة " لا أعبد " وباسم الفاعل أخرى " ولا أنا عابد " والمقصود الأعظم براءته من معبودهم بكل وجه وفي كل وقت ، فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتي بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني ،وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني ،فكأنه قال : عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا،فأتى بنفيين مقصودين بالنفي،وأما في حقهم فأتى باسم الفاعل(عابدون)الدال على الوصف والثبوت دون الفعل ؛ لأن الوصف الثابت اللازم العائد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لله منتف عنكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه ، وإن عبدوه في بعض الأحيان ، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره ، وكذا قال المشركون عن معبودهم " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " [الزمر3] فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفي الوصف ؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها . (3)

---

(1) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، جـ 8 ، ص 523 . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ 2 ، ص 179 .

(2) عتيق ، عبد العزيز ، علم البديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1403ـ 1983 ، ص 81 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، جـ 1 ، ص 151 .

التكـــرار :

جاء في المزهر : ومن سنن العرب : التكرير والإعادة ؛ إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر . (1) وقال ابن قتيبة : " وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ من بعض ، كتكراره في " قل يا أيها الكافرون " ومن مذاهبهم التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن افتتان الخطيب والمتكلم في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد " . (2)

وورد التكرار في السورة في الآيات الآتية : " لا أعبدُ ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبدُ * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد " [الكافرون2ـــ5] تظهر فائدة تكرار الأفعال كما يلي : ففي قوله : " لا أعبد ما تعبدون " نفي للحال والمستقبل ، وقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " مقابلة له أي لا تفعلون ذلك ، وقوله : " ولا أنا عابد ما عبدتم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

" أي لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال : " ما عبدتم " فكأنه قال لم أعبد قط ما عبدتم . وقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " مقابلة أي لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما . وعلى هذا فلا تكرار أصلا ، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه . (3)

وذكر ابن قتيبة أن التكرار جاء للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه : " قل يا أيها الكافرون " لأنهم أرادوه أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا ، فأراد الله تعالى حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب. (4)

ويحتمل التكرار في الآيات وجوها هي :

1ــ أن العرض الذي عرضوه يقتضي تقسيم العبادة بين الله وبين الشركاء على نوبات زمانية ، وهذه تقضي التكرار لدى التطبيق ، فقابلها التعليم الرباني برفض متكرر ، ليقابل الرفض صورة العرض .

2ــ تأكيد الرفض على عادات الناس في تكرير المفردات والجمل للتأكيد ، وله نظائر كثيرة لدى الأدباء والشعراء

3ــ حمل أحدهما على الحال وحمل الثاني على الا ستقبال .

4ــ حمل أحدهما على المعبود ، اذا اعتبرنا لفظ (ما) فيه اسم موصول ، وحمل الآخرعلى نوع العبادة إذا

---

(1) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ط3 ، دار التراث ، القاهرة ، جـ 1 ، ص 332 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(2) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1423ـــ 2002 . ص 149 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، جـ 1 ، ص 149 .

(4) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ص 151 .

اعتبرنا لفظ (ما) فيه حرف مصدري يكون هو وما بعده في تأويل مصدري ، أي : لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتي . (1)

وذكر صاحب ملاك التأويل أن هذه السورة لم يتكرر فيها آية واحدة ؛ لأن كل آيـــة منها تفيد من المعنى وتحرز ما لا تفيده الأخرى . فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها . فقوله : " لا أعبد ما تعبدون " أي لا أفعل ذلك فيما أستقبله من زماني . وقولـــه : " ولا أنـــتم عابدون ما أعبد " ولا أنتم تفعلونه فيما يستقبل . وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أولئك العصبة أنهم لا يؤمنون ، وهم الذين قتلهم الله يوم بدر . فتأمل قوة التحدي وبلاغة الإعجاز في صدق الإخبار عن الغيب . ثم قال : " ولا أنا عابد ما عبدتم " أي : ولا أنا متصف فيما مضى من عمري إلى الآن بعبادة آلهتكم ، ولا كنتم أنتم فيما مضى متصـــفين بعبـــادة الله سبحانه . فعبر عن أربعة أحول متباينة وهي : حاله عليه السلام وحالهم فيما يستقبل ، وحاله وحالهم فيما تقدم . فعبر عن الحالات الأربع بأربع آيات فلا تكرار . (2)

وهذا التكرار اختصار . وهو إعجاز ؛ لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضـــي والحال والاستقبال ، ونفى عن الكفار المذكورين في سبب النزول عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضا ، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة (العبادة) ست مرات فذكر لفظ الحـــال ؛ لأن الحال هو : الزمان الموجود ، واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمنة الثلاثـــة ، واقتصر من الماضي على المسند إليهم ، فقال : " ولا أنا عابد ما عبدتم " (3)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبناء عليه فإن التكرار الوارد في السورة ليس تكرار الملل وفساد المعنى ، وإنما أفاد تأكيد الثبات على الحق ، ونفي العروض الزائفة ، وهو تكرار لمعان متعددة .

---

(1) الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة ، معاني التفكر ودقائق التدبر ، جـ 1 ، ص 708 .

(2) الغرناطي ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، ملاك التأويل ، تحقيق د. محمود كامل أحمد ،دار النهضة،بيروت،1405 ــ 1985 ،ج2 ،ص955

(3) الكرماني ، محمود بن حمزة ، أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ص 256 .

التقديم والتأخير :

ذكر الجرجاني فضل التقديم والتأخير فقال : " هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه،ويلطف لديك موقعه ،ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أنْ قدم فيه شيء وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان " . (1) وقد تطرق البلاغيون إلى التقديم والتأخير ، وذلك لأسباب بلاغية يقتضيها السياق اللغوي ورتبة الموقع الإعرابي ، ومفاد ذلك تقديم المعنى إذا كان له أثر كبير في نفس المتكلم . (2)

وقد ورد التقديم والتأخير في سورة الكافرين في آية واحدة هي: " لكم دينكم ولي دين " [الكافرون 6] تظهر هذه الآية البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بيه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان المحق هو صاحب القسمة ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردى منه ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم . فكان بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاءً فرضي مقاسمه بالسم ، فإنه يقول له : لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في قسمك ، لك قسمك ولي قسمي . فكان تقديم " لكم دينكم " أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا قسمك الذي آثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين ، فاستحقوا التهكم والنداء على سوء الاختيار وقبح ما رضوه لأنفسهم . ولما كان القصد براءته من دينهم بدأ بـــه أول السورة ، ثم جاء قوله " لكم دينكم " مطابقا لهذا المعنى ، أي لا أشارككم في دينكم ، بـــل هو دين تختصون به أنتم ، فطابق آخر السورة أولها . (3)

وذكر الشوكاني أن جملة " لكم دينكم " مستأنفة لتقرير قوله : " لا أعبد ما تعبدون " وقوله : " ولا أنا عابد ما عبدتم " كما أن قوله : " ولي دين " تقرير لقولـــه : " ولا أنـــتم عابدون ما أعبد " والمعنى : أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصـــول لكـــم لا يتجاوزه إلى الحصول لي كما تطمعون،وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم . وحذفت الياء من " ديني " لرعاية الفواصل ، وهو ســـائغ وإن كانت اسما . (4)

وذهب بعض المفسرين إلى أن تركيب التقديم والتأخير في الآية أفـــاد التهديـــد لا الرضى بدين آخر

---

(1) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1402ـــ 1981 ، ص 83 .

(2) النجار ، فخري خليل ، الأسس الفنية للكتابة والتعبير ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1430ـــــ 2009 . ص 47 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع القواعد ، جـــ 1 ، ص 154 ـــ 155 .

(4) الشوكاني ، فتح القدير ، جـــ 5 ، ص 648 .

كقوله : " اعملوا ما شئتم " [فصلت 40] (1)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفهم قوم أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه أفاد أمرين : **أحدهما** : أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم . والصواب أنه لا نسخ في السورة ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل فيستحيل دخول النسخ فيه ، وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى سورة الإخلاص .

الثاني : أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب . ولكن معاذ الله أن يكون في السورة إقرار لأحد على دينه ؛ لأنها من أحكام التوحيد كما تقدم ، كما أن الآيات والأحاديث ذكرت في أكثر من موقع أنه أنكر عليهم دينهم وعيبه ، فقال تعالى : " ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " [آل عمران 85] كما أن الرسول ــ عليه السلام ــ جاهد الكفار وأهل الكتاب بالحجة كما جاهدهم بالسيف . (2)

(**1**) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ **2** ، ص **179** . والزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، جـ **15** ، ص **844** .

(**2**) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، جـ **1** ، ص **155 ــ 156** .

الخاتمـــــــة :

في نهاية هذه الدراسة توصلت إلى النتائج الآتية :

1ــ لسورة " الكافرون " فضائل كثيرة ، منها أنها تعدل ربع القرآن .

2ــ السورة حد فاصل بين الإيمان والكفر ، وهي براءة من الشرك .

3ــ تنوعت التراكيب في السورة وأفادت السياق قوة وإظهارا للمعنى .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4ــ تضمن الخطاب في السورة أعنف المواجهات مع الكافرين ، وهو ليس من عند الرسول ، وإنما مأمور به .

5ــ ظهرت بلاغة تركيب النداء في السورة في عدة جوانب ، وخرج إلى معنى الإهانة .

6ــ كان النفي أكثر التراكيب ورودا في السورة ، وورد بأساليب متنوعة ، وذلك ليدل على رفضه عروضهم ومساومتهم .

7ــ لا يوجد في السورة تكرار ؛ لأن كل آية منها تفيد من المعنى وتحرز ما لا تفيد الأخرى ، فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها .

8ــ أفاد التقديم والتأخير في السورة إعلان البراءة بين ديني الإيمان والكفر ، وخرج إلى معنى التهديد والوعيد.

* **فهرس المراجع :**

1ــ الألوسي ، روح المعاني ، دار الفكر ، بيروت ، 1414 ــ 1994 .

2ــ الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق صدقي محمد جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت ، 1414ــ 1994.

3ــ الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1402 ــ 1981 .

4ــ ابن جني ، الخصائص ، تحقيق عبد الحميد بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين .

5ــ الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي ، شرح ملحة الإعراب ، تحقيق د. فائز فارس ، ط1 ، دار الأمل، إربـــد ، 1412 ــ 1991 .

6ــ حسن ، عباس ، النحو الوافي ، طــ 5 ، دار المعارف ، القاهرة .

7ــ أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني ، الحنفي ، التعريفات ، ط1 ، دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت ، 1421 ــ 2000 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

8ـ أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422 ـ 2001 .

9ـ الخالدي ، كريم حسين ناصح ، الخطاب النفسي في القرآن الكريم ، ط1 ، دار صفاء ، عمـان ، 1428 ـ 2007 .

10ـ أبو داود ، سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت،1418 ـ1997.

11ـ الدرة ، محمد علي طه تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه ، ط1 ، ابن كثير ، دمشق ، بـيروت ، 1430 ـ 2009 .

12ـ الزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق ، 1424 ـ 2003 .

13ـ الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، 1409 ـ 1989 .

14ـ الزمخشري ، الكشاف ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415 ـ 1995 .

15ـ السامرائي ، فاضل ، معاني الأبنية في العربية ، ط2 ، دار عمار ، عمان ، 1428ـ 2007 .

16ـ السكاكي ، مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت .

17 ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق محمد علي النجار ، ط1 ، مطبعة الحلبي ، مصر ، 1973 .

18ـ السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424ـ 2002 .

19ـ السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ط3 ، دار التراث ، القاهرة .

20ـ شابسوغ ، حفيظة أرسلان ، الجملة الخبرية والجملة الطلبية ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، إربـد ، 1425 ـ 2004 .

21ـ الشوكاني ، فتح القدير ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، 1423 ـ 2003 .

22ـ عتيق ، عبد العزيز ، علم البديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1403 ـ 1983 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

23ـ الغرناطي ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، ملاك التأويل ، تحقيق د. محمود كامل أحمد ، دار النهضة، بـيروت ، 1405 ـ 1985 .

24ـ الغلاييني ، مصطفى ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، 1423ـ1981.

25ـ قباوة ، فخر الدين ، إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ط3 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1401 ـ 1981 .

26ـ ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1423 ـ 2002 .

27ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة

28ـ ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط1 ، دار البيان ، دمشـق ، 1415ـ 1994 .

29ـ الكرماني ، محمود بن حمزة ، أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق أحمد عبد القادر عطا ، دار الفضلية ، القاهرة .

30ـ المخزومي ، مهدي ، في النحو العربي نقد وتوجيه ، ط1 ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، 1964 .

31ـ مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، ط1 ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2010 .

32ـ ابن منظور ، لسان العرب ، ط3 ، دار إحياء التراث ، بيروت ، 1419 ـ 1999 .

33ـ الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ، معارج التفكر ودقائق التدبر ، ط1 ، دار القلم ، دمشـق ، 1420 ـ 2000 .

34ـ النجار ، فخري خليل ، الأسس الفنية للكتابة والتعبير ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1430ـ2009.

35ـ ابن هشام ، مغني اللبيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت، 1424 ـ 2003 .

36ـ ابن يعيش ، شرح المفصل ، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com